الباب الأول

تكامل الفنون في الأوبرا

* تعريف الأوبرا

* ما هو الفن؟

* كيف يتم إعداد وتقديم الأوبرا؟

تعريف الأوبرا:

إن الحديث عن الأوبرا، أو وصفها بالكلمات، أمر يُماثل في صعوبته استعمال الكلمات في تسجيل الانطباعات النفسية من مشاهدة لوحة زيتية أو تمثال أو الاستماع إلى سيمفونية.

وإذا اقتصرنا في الحديث عن الأوبرا على سرد تاريخها وأنواعها أو ما فيها من شعر وغناء نكون قد أعطينا القارىء نصف المتعة التي يتيحها الحضور والمشاهدة، ولا يستطيع أحد أن ينقل بوضوح الشحنة العاطفية والجمالية في الأوبرا أو في المسرح بصفة عامة.. إنها تجربة الفن والحياة.

وإني لا أفترض أن يكون القارىء واسع الإلمام بشئون المسرح أو بتفاصيل فن التمثيل والغناء أو الإخراج أو إدارة المسرح أو تصميم المناظر والملابس والرقصات، لذلك كان من الواجب التعريف بالمبادىء الأولية لهذه (الفنون) وعرضها في أسلوب يثير اهتمام الرجل العادي ويدفعه إلى التردد على دار الأوبرا أو المسرح عامة.

مجرد حلم:

في الأوبرا يغني الأشخاص لبعضهم كل حوار الرواية.. فهل يُمكن أن يحدث ذلك في الحياة العادية؟

إن ذلك لا يحدث في الحياة اليومية، ولكن الغناء والموسيقى والرقص في الأوبرا هي وسائل للتعبير ذات صبغة جمالية ولو كان الحوار بين الناس غنائيًا لما قام شر ولا معارك، ولما وجد العنف مجالًا وأصبحت الحياة هادئة جميلة يسودها السلام.

مجرد رأي أو حلم فنان

كلمة أوبرا كلمة إيطالية (opera) يُقابلها في اللغة الفرنسية كلمة "Oeuvre" ومعناها عمل فني. أما العمل الذي يُطلق عليه هذا الاسم فيتطلب تعريفه استعارة المصطلح العلمي "كيان عضوي" أي كيان يضم عدة عناصر تتكامل مع بعضها ويربطها هدف مُشترك وهو تحقيق وجود شيء واحد، وفي الأوبرا يصبح هذا الهدف المُشترك هو تقديم عمل فني مسرحي مُوسيقي على خشبة المسرح في صورة مُتكاملة تشترك في أدائه العناصر المُتعددة التي سيأتي بيانها، ويعتمد كل عنصر منها في أداء وظيفته على أداء العناصر الأخرى مهما كانت وظيفتها صغيرة نسبيًا.

إنه هدف واحد ومفهوم واحد لا خلاف عليهما بين تلك العناصر المُتعددة التي تعمل بجدية وإخلاص لتحقيقه تحت إشراف ورئاسة ثلاث شخصيات رئيسية: مؤلف – الموسيقى – المخرج قائد الأوركسترا

وللإنصاف لابُد أن أذكر أن العناصر التي سيأتي بيانها والتي تشترك في إنتاج الأوبرا تُقدم في الواقع فنونًا من ابتكار فنانين يتميزون بالموهبة والمهارة وسعة الخيال.. إنهم من مبدعي الثقافة ومثقفي الشعوب.

والأوبرا مسرح الإبهار والإتقان والتكامل يتطلب التعاون الكامل بين جميع العناصر المُشتركة في أدائها وإعدادها بحيث لا يلقى عنصر منها تجاوبًا وإعجابًا يفوق على العناصر الأخرى، وقد يثير هذا الأمر جدلًا ساخنًا بين الشاعر ومُؤلف الموسيقى والمُخرج والفنيين والممثلين عن الدور الذي ينبغي أن يقوم به كل عنصر في العرض الأوبرالي.

لقد جاءت كلمة "فن" كثيرًا فيما سبق،

ما هو الفن؟

سؤال بعيد كل البعد عن البساطة، وتكون إهانة لذكاء القارىء أن يدعي أحد أن هُناك تعريفًا واحدًا يجيب على هذا السؤال، وقد يقول العارفون أن كلمة فن تندرج تحت عدد من رؤوس الموضوعات لأن السمات التي تُعتبر أساسية في الفن تختلف إلى حد يعجز الموضوع الواحد جمعها.

وقبل أن ندخل في تفاصيل عناصر الأوبرا أجد أنه من المهم للقارىء أن أعطيه فكرة عمّا هو الفن، حيث أن الأوبرا هي مجموعة فنون تشترك في إنتاجها.

ويقول الفكر الشائع:

* يكون الشيء فنا لمجرد أنه أنتج على نحو مُعين.

* إذا ثبت أنه جذاب يسترعى الانتباه من الناحية الإستاطيقية.

إنها وجهات نظر تختلف حسب الأشخاص والعصور، ولنأخذ مثلًا مسرحيات شيكسبير، البعض يُقدرها على أساس ما فيها من مزايا شعرية وغيرهم يقدر ما فيها من إثارة ميلودرامية أو لما فيها من تحليل دقيق لنفس الإنسان، إنها أعمال لمؤلف واحد إلا أنها ذات أوجه مُختلفة بالنسبة للمتلقي أو المُفكر.

كذلك قيل أن الفن إبداع فردي تظهر فيه العبقرية وتزدهر ولا تعرف القيود بل تتجاوز القواعد والنظم لابتكار الجديد، وقيل أن الفن نشاط إنساني يحتاج إلى موهبة ومهارة أو أن قيمته تُقاس بمقدار ما يشعر به المتلقي من لذة نفسية واستمتاع جمالي.

ربما كانت هذه هي الأسباب التي تجعل الناس يغدقون المديح والتكريم على الأعمال الفنية، وربما كان ذلك لأن العمل قد استوفى شروط البناء السليم والتوازن والوحدة والتنوع علاوة على مضمون عظيم الثراء يخضع لتنظيم وانسجام دقيق لا عناصر زائدة فيه تضعفه أو تُشتت تفكير المتلقي.

وهناك وجهات نظر مُختلفة، فقد يأتي تعريف الفن من وجهة نظر نفسية أو اجتماعية أو تاريخية أو تطبيقية:

(١) فعالم النفس سيبحث في حياة الفنان الذي أبدع العمل الفني وفي الإثارة الانفعالية التي ولدت ذلك العمل ويهمه بشكل رئيسي سيكولوجية الإبداع.

(٢) وعالم الاجتماع سيسند الفن العظيم إلى حضارة مُعينة أنتجته، وقد يرى أن الأعمال الفنية لها دلالات في تاريخ الأمم كأن تُسبب تغيرًا إجتماعيًا أو تكون حافزًا على قيام ثورة.

(٣) ويهم علماء التاريخ تصنيف الفن وفقًا للعصور والفقرات التاريخية والاتجاهات الفنية التي سادت فيها.

(٤) أما الباحث في النواحي الجمالية فسيحاول تعريف الفن من خلال مئات المجلدات التي تتناول الجماليات واختلافها بالنسبة للاتجاهات الفنية والعصور المختلفة.

(٥) ويتصدى الناقد لتحليل العمل الفني وتحديد قيمته، وهو عمل يختلف تمامًا عن المفكر الجمالي لأنه يبحث عما يُشكل قيمة الفن.

(٦) والمُتخصصون في علم الأنثروبولوجيا (أي علم الإنسان) سيبحثون في أهمية الفن في التجربة البشرية أي بماذا أفاد الفن البشرية، وكذلك ارتباط الفن بسائر جوانب حياة الإنسان.

وهُنا يحضرني سؤال عابر: لماذا يصبح للفن التشكيلي قيمة مادية كبيرة بعد وفاة مبدعه بعدة سنوات فتُباع لوحاته بالملايين؟

وأخيرًا هل الفن جدير بالاهتمام الذي يلقاه على المستوى الفردي والاجتماعي والإعلامي والأكاديمي؟

نعم، فمما لا شك فيه أن للفن مرتبة رفيعة بين الأشياء الطيبة التي ينتجها الإنسان وله أعظم قيمة بين كل الإنجازات البشرية لأنه شيء يبتكره الفنان لإسعاد الإنسان واستمتاعه بعيدًا عن المنفعة أو خدمة أهداف من أي نوع كانت.. وهذا رأيي.

وبعد هذه المقدمة أُضيف أن هناك فرقًا كبيرًا بين إبداع الفن وبين الكلام عنه أو الاستمتاع به، وعلى الرغم من تعدد وتنوع فروع الفن إلا أنه يكون عالمًا قائمًا بذاته، وما هذه الفروع إلا أنواع من الإبداع البشري تُوصف بأنها جميلة، مُمتعة وطريفة.

والفن والفكر توأمان لأن الفن الحقيقي يحتوي على فكرة يسعى مؤلفها إلى تحقيقها عن طريق وسيلة مادية، وقد تكون هذه الوسيلة حجرًا أو رخامًا يتحول بالفن إلى تمثال رائع، وقد تكون الوسيلة كلامًا يجعل منه الفن شعرًا ونثرًا أو تكون أصواتًا يغزل منها الفنان سيمفونية أو أوبرا.

ولا بُد أن يكون للفن أيضًا هدف إنساني أي أن يكون الابتكار الفني مشحونًا بالقيم التي تعطي للشيء وزنًا ثقافيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا.

وعلى ذلك فهل يجوز أن نقول أن الفن هو البراعة في مُعالجة المادة أي الوسيلة والسيطرة عليها؟ أم هو القدرة على ابتكار الجديد، أو أن

الفن مصدره الإلهام، ولكن من أين وكيف يأتي ذلك الإلهام؟ هذا أمر يصعب على الفنانين أنفسهم تفسيره.

ولما كان في الفن فكر وكان له هدف فلا بُد أن يكون الفنان واعيًا بما يعمل أي يُسيطر على عملية الابتكار وليس كما كان الأقدمون يعتقدون أن الابتكار عملية تتم في حالة غيبوبة وشعور بنشوى يفقد فيها الفنان سيطرته على نفسه ويصبح وسيطًا لقوى خارجة عنه تملي عليه أو تقود فكره أو كما يظن البعض أن الخمر والمخدرات تُساعد الفنان على بلوغ حالة اللاوعي التي هي مصدر الإلهام.

وبعد كل هذا التحليل مازال تعريف الفن والبحث في نواحيه غير مُكتمل، فهُناك تصنيف آخر للفن:

(١) الفن الأكاديمي وهو الذي يلتزم بتطبيق الأصول والقواعد المعمول بها في المناهج الأكاديمية.

(٢) الفن الشعبي وهو التعبير التلقائي الذي ينتج بالسليقة ومصدره غالبًا أعماق الريف أو الصحراء.

(٣) فن العصور المختلفة والاتجاهات الفنية فيُقال هذا من عصر النهضة أو العصر الكلاسيكي أو الرومانتيكي فن من الاتجاه التأثيري أو الانطباعي أو التكعيبي.

أما فن العصر الحديث وخاصة في الموسيقى فمازال يُقابل بعدم الرضا لأنه سار في اتجاهات جعلت من الموسيقى ما يُشبه الضوضاء من شدة تنافر التركيبات الصوتية مثل الاتجاهات اللا مقامية والاثنى عشرية وسيأتي شرحها، ومن يدري ماذا يأتي به الغد؟ وعلى كل حال فالفن الجديد كان على مر العصور يفتقر دائمًا إلى الجماهير المُتعاطفة والمُقدرة، والذهن البشري في نظرته للفنون محافظ وخاصة فيما يختص بالموسيقى، فما أكثر المُعجبين بالقديم والمُتعصبين له!

قال أوسكار وايلد الأديب الإنجليزي الخالد: الفن سجل لانفعالات الإنسان وهو في الوقت نفسه أداة لتوصيلها إلى الآخرين، علمًا بأنه ليس من المُمكن التنبؤ بما سيشعر به المُتلقي، فهل سيشعر بنفس الانفعال الذي عبّر عنه الفنان المُبتكر؟ أو هل الدلالات التي تُوحي بها الموسيقى سوف تتساوى عِنْدَ جميع المُستمعين؟

وأخيرًا ينبغي التمييز بين:

(١) الفن الجميل.

(٢) الفن النافع.

(٣) الفن الذي ليس من صنع الإنسان.

فالفن الجميل ليس إلا تعبيرًا عن انفعال فنان، إنه انطلاق الخيال والعاطفة، والفن النافع هو ما ينتجه الصانع الماهر من أشياء يستفيد منها

الإنسان في حياته اليومية، أما الفن الذي ليس من صنع الإنسان أي من صنع الله ﷻ، ويقول البعض عنه أنه من صنع الطبيعة فهو لا يُعبر عن انفعال بل يُسببه أو يزيد انفعال الإنسان عُمقًا. أما الفن الذي يعجز عن التأثير في الناس فهو إما فن ردىء أو ليس فنًا على الإطلاق.

كيف يتم إعداد وتقديم الأوبرا:

وبعد هذه الجولة مع الفن وأنواعه نعود إلى موضوعنا الأساسي: الأوبرا التي قال عنها المعجبون بها والمشتغلون فيها:

الأوبرا عيد للعين والأذن، هي فن تصنعه العبقريات ويخرجه الإتقان والتكامل.

تلك هي الصفات التي يجب أن تتوفر عند كل العاملين في تقديمها وسيأتي تعدادهم وتصنيفهم.

سألني بعض الذين آثار فضولهم عرض أوبرا "عايدة" في الأقصر والجيزة وما أُثير حول هذين العرضين من ضجة إعلامية وسياحية: ما هي الأوبرا؟ فقلت باختصار شديد إنها مسرحية حوارها شِعري يُغنى من البداية إلى النهاية، وقد يكون موضوعها تراجيديا أو دراما أو كوميديا ساخرة.

ولكل مسرحية موضوع ومضمون ومغزى، موضوع يُؤلفه أديب يُعالج مشاكل الإنسان أو يُحقق آماله بصفة عامة، ومضمون يُعكس بشخصيات

الرواية أنماطًا من الناس بطباعهم وسلوكياتهم مما يجعل المُشاهد يُعجب بهم أو يرى نفسه في أحدهم أو غيره من المحيطين به، أما المغزى فهو يدور دائمًا حول النتائج التي تعود على الإنسان من تصرفاته الرشيدة أو غير الرشيدة، وكثيرا ما يكون موضوع الأوبرا مأخوذًا من أسطورة قديمة أو سيرة شعبية ولكن المضمون والمغزى لا يتغيران بصفة عامة.

وقد لا يتصور القارىء مدى الجهد الذي يبذله كل المشتركين في تقديم ذلك العيد الفني الكبير الذي يُسمى أوبرا والذي قد يتعرض لمُهاجمة ناقد مغرض فيسقط في العرض الأول كما حدث لكثير من الأوبرات أو الأعمال السيمفونية والتي أصبحت – على الرغم من ذلك النقد التعسفي – تُراثًا إنسانيًا تعتز وتستمتع به شعوب العالم، وأذكر على سبيل المثال لا الحصر أوبرا "كارمن" التي مات مؤلفها جورج بيزيه الفرنسي من الحسرة على عدم فهمها وتقديرها في عرضها الأول، وكذلك سيمفونية بيتهوفن الخامسة التي لم يرض عنها نقاد ذلك العصر.

وإليك أيها القارىء فكرة سريعة عن العناصر البشرية من الفنانين والفنيين الذين يشتركون في إعداد وتقديم الأوبرا:

* أديب يضع النص الدراسي والإعداد المسرحي أو يستوحي الأساطير والتاريخ.

* شاعر يكتب حوار المشاهد بشعر سلس يصلح للغناء.

* مُؤلف موسيقى يضع الألحان والمؤثرات الموسيقية التي تخلق المناخ النفسي للأحداث.

ومهمة هؤلاء الثلاثة هي ابتكار القصة، إن لم تكن مأخوذة من أسطورة أو من التاريخ وتقديمها في مشاهد مُتسلسلة، ثم نظم أشعار الحوار وكأنه تعبير تلقائي لا افتعال فيه، ثم يتناول مؤلف الموسيقى هذه الحصيلة ليضع الأنغام التي تُعبر عن المواقف وتضيف للكلمة ثراء النغمة.

الترابط بين الشعر والموسيقى حقيقة قائمة مُنذ قديم الزمن، والحقيقة الثانية هي أن كل منهم يُثر في الآخر فيُقال أن في الشعر موسيقى أو أن هذا الشاعر يغني، ويُقال في الموسيقى الشاعرية في التعبير النغمي أو الترنم الشاعري.

يأتي بعد ذلك دور مصممي المناظر والملابس الذين يقع عليهم الاختيار، يبدأ عملهم من واقع الإعداد المسرحي مُتعاونين تعاونًا وثيقًا حتى يأتي تنسيق الألوان مُنسجمًا في الديكورات والملابس.

ومهمة هؤلاء الفنانين ليس فقط الالتزام بالواقع التاريخي، إذا كان الموضوع تاريخيًا بل من واجبهم أن يجعلوا ما يُقدم على خشبة المسرح عيدًا للعين تتمتع فيه بجمال الفن التشكيلي وهندسة المعمار وتناسق الألوان.

مُنذ نشأة فن الأوبرا جرى العُرف أن يكون في كل أوبرا رقصات جماعية أو فردية من نوع البالية على ألا تكون هذه الرقصات مُقحمة على

الموضوع، بل تأتي كجزء من حدث لبه مكمل له، والهدف من وجود هذه الرقصات هو تخفيف حدة الدراما وإعطاء المشاهد فرصة للاستمتاع بهذا الفن الرفيع.

يقوم بتصميم حركات وخطوات تلك الرقصات فنان مُتخصص يُسمى "كوريوجراف" ولا تنحصر مهمته في التصميم فقط بل يتولى تدريب الراقصين والراقصات وهي من المهام الشاقة التي تبدأ عند الانتهاء من إعداد كراسة الموسيقى.

يأتي بعد ذلك تدريب المغنيين المنفردين الذين يُؤدون الأدوار الرئيسية والثانوية في الرواية ويُشترط فيهم مُلائمة الصوت للشخصية التي يقوم بتمثيل دورها هذا، علاوة على إتقان قراءة النوتة، ويتم اختيار هؤلاء من بين مُحترفي الغناء الأوبرالي وذوي الأصوات المُدربة.

ولا تقتصر مهمة هؤلاء من رجال ونساء على إتقان الغناء لأنهم ليسوا مجرد شخصيات تُغرد بأصواتها ألحانًا مُنمقة مُرصعة بالحليات التي تبرز إمكانات أصواتهم وبراعة أدائهم، إنهم يتقمصون شخصيات حقيقية في رواية مُتكاملة الوقائع ولا يبلغوا القمة إلا إذا استطاعوا توصيل أدق إحساساتهم إلى المُشاهدين حتى ينسوا أنهم في مسرح، وما هذه الإحساسات إلا مدرج من المشاعر الإنسانية التي اعتصر مؤلف الموسيقى نفسه ليُعبر عنها، ثم اعتمد عليهم في حسن الأداء.

ولا يجب أن نهمل دور مُدربي الغناء سواء للمغنيين المُنفردين أو فريق الكورال، إنهم فنانون تخصصوا في دراسة الأصوات البشرية وطبيعة كل نوع منها، ثم مارسوا تعليم الغناء الأوبرالي هذا علاوة على إجادة العزف على البيانو.

تبدأ مهمة هؤلاء عندما ينتهي مؤلف الموسيقى من إعداد كراسة البيانو للأوبرا كاملة، وليست مُهمتهم "التحفيظ" بل الإتقان والتجويد، لأن كل العناصر سالفة الذكر تجيد قراءة النوتة وسبق لها التعرف على الدور المُخصص لكل منهم

ومن أهم العناصر التي تُشارك في إعداد وتقديم الأوبرا: المخرج ومساعدوه، وسيأتي شرح دورهم الخطير الذي يشمل تعليم المُغنين تمثيل أدوارهم والاندماج فيها وتحريك المجاميع وتحديد الإضاءة.. إلخ.

ينضم المخرج ومساعدوه إلى الفريق بمجرد اختيار الموضوع وقد يُساعد في الإعداد المسرحي، وباختصار شديد هو المسئول عن كل ما يدور على المسرح، هو سيد التخيل المسرحي ومن مهامه إقناع المشاهد بمطابقة الأحداث للحياة الواقعية وهذا ما يُسمى في لغة المسرح بالإيهام، لم يعد المخرج مجرد قائد مجموعة من المُمثلين بل غدا حجة في الفنون المسرحية ومعلما والمُعبر عن ما في النص من أهداف.

بعد أن ينتهي مؤلف الموسيقى من إعداد كراسة الأوركسترا وكراسات العازفين يتسلم العمل قائد الأوركسترا الذي يكون بالضرورة قد باشر

تدريب المُغنين والكورال مع المؤلف ليبدأ تدريب الأوركسترا بدون المُغنين أولًا، ثم ينضم الجميع في التدريبات على خشبة المسرح لضبط السرعات ومُوازنة حجم أصوات المُغنين مع الأوركسترا.

إن مهمة قائد الأوركسترا غاية في الأهمية والخطورة فهو المسئول عن تفسير وإخراج النص الموسيقي، وهو المسئول عن التنسيق بين ما يدور على خشبة المسرح وما يعزفه الأوركسترا من مكانه في "حفرة" أسفل الخشبة وهو الذي يضع اللمسات الأخيرة أثناء التدريبات النهائية التي يزيد عددها أو يقل حتى يصبح العمل مُعدًا للعرض على الجماهير.

تأتي بعد ذلك مجاميع الكومبارس ويختلف عددهم وفقًا لأحداث الرواية، كما تختلف أدوارهم التي يُحددها المخرج.

ويشترك في إخراج الأوبرا جُند مجهولون كثيرون هم جيش من عُمال تصنيع الديكورات والملابس وجيش آخر من مُهندسي وعُمال الإنارة والصوت وإدارة خشبة المسرح... إلخ، ولا يقل دورهم في الأداء عن أي عنصر آخر.

تتكون من هؤلاء جميعًا وحدة مثالية وفريدة ويُصبح الشعار السائد بين الجميع أن عرض الأوبرا هو عيد فني كبير وأن كل ليلة يتكرر فيها العرض يجب أن تلقى نفس الاهتمام الذي يُعطى لعرض الليلة الأولى.

وهكذا يتضح للقارىء أن الأوبرا هي قمة الأعمال الموسيقية تجمع كل الفنون والمهن في عمل موسيقي مسرحي واحد له عائد ثقافي مُتعدد النواحي: إنه يرفع مُستوى التذوق ويعطي لِلمُشاهد مُتعة يندر أن يحصل على مثلها من أي فن آخر.

ومن ناحية أخرى فإن تقديم الأوبرا الأجنبية أو المصرية قد يُساعد على علاج الأغنية المصرية وتخليصها من التطريب والرتابة والتكرار، وهي عيوب لا يسمح بها ارتباط الغناء بالتمثيل والحركة على المسرح.